مـــريـــم عليها السلام

لم تُـرْزقْ أمُّها بولد، لأنها كانت عاقراً، وطالما تمنَّته، لتمتِّع نفسها بمرآه، وتقرّ عيناً بطلعته، وكلما رأت طائراً يُطْعم فَرْخَه، أو سيدة تحمل طفلها، اشتدت رغبتها فيه، وأحسّت زيادة الميل إليه، وقد عانت في ذلك مثلَ ما تُعَاني المرأة حينما تجِد نفسها قد حرمت الطفل الذي هو سلوتها في وحشتها، وسميرها في وحدتها، والذي تبسِم به حياتها، وتهون به مصاعبها وأوْصَابها.

وأقضَّ ذلك مَضجَعها، وودَّت لو بذلت أغلى ما تملك، ثم تنظر فترى ولدها يَرْنو إليها بنظره، ويقبل عليها بوجهه، فتُفرغ عليه حنانها، وتغمره بعطفها، وتبذل له من نفسها ما يريح جسمه، وينمي جسده، ويسمو بروحه، حتى يَشِبّ فيَصير مِلء سمع الأرض وبصرها.

وقد تكون أمضت الأيام، بل السنين، ترقب تحقق هذا الرجاء، وتنتظر نوال هذه الأمنيَّة، وقاست فيها المتاعب، وذاقت مرارة اليَأس، وقد تكون أيضاً غبطت الشجرة المثمرة، والمرأة الولود.

وأنا أراها في ذلك قد لبَّت نداء جبلّتها، وطاوعت غريزتها، فأحلى أماني المرأة أن تجد ولدها بجانبها، وترى طفلها بمرأى منها، حتى لقد نرى ذلك في البنات الصغيرات؛ فهنَّ يدلِّلن العرائس، ويُنَاغِين[1] الدُّمى.

التجأت إلى ربِّ السموات والأرض، وتوسلت إليه في خضوع وخشوع، ونذرت إن أنالها أمنيتها، وحقق رجاءها، ورزقها ولداً، تتصدق به على بيت المقدس، فيكون خادماً له، وسادِناً فيه. وأخذت العهد على نفسها ألا تستخدمه في شيء، أو تشغله بأمر، بل هو لخدمة البيت محرراً، ولسدانته مُخْلصاً.

أليس ذلك دليلاً على أنها لا تبغي الخلَفَ إلا لإشباع رغبتها، واستقرار نفسها؟ فهي

---

(١) ناغى الصبي: لاطفه بالمحادثة والملاعبة.

لا تريده ليكون عائلاً لها، أو عَضُداً تشدّ به أزرها، بل ترجوه وتأمله، حتى إذا تحقق الرجاء، واستجيب الدعاء، وهبته لله، وحرّرته لخدمة بيته، ويكفيها أنها ولدت، ليطمئن قلبها، ويشيع السرور في فؤادها.

أجاب الله دعاءها، وآتاها سُؤلها، فشعرت بالجنين يتحرك بين أحشائها، فاخضرَّ عودها، وأشرقت الدنيا في عينيها، وفارقها عبوسها، وافترَّ ثغرها، وأصبحت مَرِحَة مُقبلة على الحياة بصدر منشرح، تجلس إلى زوجها تحدثه عما يجول بنفسها، وما تقدره لولدها، وهو يستمع إليها مبتهجاً، ويُصْغي إلى شهيّ حديثها مغتبطاً، وغمرتهما نشوة من السرور، أنستهما ما قاسيا في الحياة من ألم، ومسحت ما فاضت به عيونهما من شؤون.

وبينما هي سابحة في أحلامها وآمالها، تُعِدُّ للمولود عدته، وترجو الحياة من أجله، قلب لها الدهر ظَهْرَ المِجَنِّ[1]، فبدلها بسرورها حزناً، وغيَّر فرحها تَرَحاً، إذ مات زوجها عمران، فاشتدَّ حزنها عليه، وفاضت دموعها غزيرة لفقدة، وقد كانت تتمنى لو أبقاه الله، حتى ينَعْمَ برؤية فَلذَةِ كبده، ويتملى بقرَّة عينه، ويقطف جناةَ بذره، ولكن قضاء الله حُمَّ، ولا رادَّ لقضائه.

صارت وحيدة مَهيضةَ[2] الجناح عابسة الوجه، وكلما تقدمت بها الأيام اختلط حزنُها بأملها، وأحست آلامها تكثر، ورأت صَرْحَ آمالها ينهار، ولكن رجاء في الله عمرَ به قلبها، وشعاعاً من الأمل فيما تحمل بين جنبيها، كانا يخففان ما بها من لوعة وأسى، ويسَرِّيان عنها ما كانت تجد من حزن ووحشة.

* * *

هُيىء لها مثل ما يهيأ للنساء عند الوضع، وَوَضَعت، وإذا المولود أنثى، ولما عرفت ذلك تحسرت على ما كان من خيبة رجائها، وعكس تقديرها، وتحزنت[3] إلى ربها، إذ كانت ترجو أن تلد ذكراً تهَبه لبيت المقدس، وتقفه على خدمته، تقرباً إلى الله، وشكراً على نعمته.

---

(١) قلب لها ظهر المجن: عاداها بعد مودة. والمجن الترس.

(٢) مهيضة: مكسورة.

(٣) تحزنت: توجعت

ولكن المولود أنثى، والبناتُ لا يصلحن لذلك، فغشيتها سحابة من الحزن، وغمرتها موجة من اليأس، ثم سمتها مريم، وطلبت إلى الله أن يعصمها بعنايته، وأن يكلأها برعايته، وأن يجعل فعلها مطابقاً لاسمها، وأن يُعِيذها وذريتها من الشيْطان الرجيم.

ألا ترى الآن قلباً محطماً، ونفساً سَحقها الحزن، وامرأة توالت عليها المحن حتى لتكاد تَضِيق بها، عاشت جُلَّ أيامها، وزهرة حيَاتها كئيبة كاسفة البال، لأنها لم ترزق الولد، فلما انفرج كربها، وانقشعت غمتها، وسمع الله دعاءها، واستشعرت الجنين في أحشائها، عَدَا عليها الدهر، فاختطفت المنيَّةُ زوجها، وقد كانت تتمنى أن يهبَ لها الله ولداً، لتجعله مخلصاً لخدمته، فولدت أنثى، فزاد حزنها، واشتد كربها!

ولكنها انطوت على هَمِّها، والتجأت إلى ربها؛ فرحم الله ضعفها، واستجاب دعاءها، وقبِل هبتها، وأتم نعمته عليها، بأن رضي أن تكون ابنتها وفاءً للنذر، خبرها بأنه أعلمُ بما وضعت، وبقدر ما وُهبت.

حينئذٍ سُرِّي عنها، وعلمت أنَّ الله قد اختصها بإكرامه، وأفردها بنعمته، فَلَفَّتْهَا في خِرقة، وحملتها إلى بيت المقدس، وقدمتها إلى الأحبار، ودفعتها إليهم قائلة: دونكم هذه البنت فإني قد نذرتها لخدمة البيت، وتركَتْها وانصرفت.

لتترك هذه الأيام التي فقدت بالأمس زَوْجها، وأودعت اليوم فلذة كبدها بين يدي سَدَنة البيت وخدمه ولتتصورها استسلمت لقضاء الله، ورضيت بما قَدَّره لها، واطمأن قلبها لقبول بنتها بقبول حسن، وإيثارها بهذه المكرمة دون غيرها من نساء العالمين.

ولتتخيل أيضاً أنها قد دفعها الحنوُّ، وحَرَّكَتْها عوامل الشفقة على بنتها، فذهبت إلى بيت المقدس، تستفسر ـ من بُعْد ـ عن حالها وتتعرف خبرها، حتى إذا اطمأنت عليها قفلت راجعة، تحمد الله على أن قبِلَ قُرْبانها، وأسبغ نعمته عليها.

ولنَتَتَبَّع الآن حال هذه البنت التي حلّتْ ضيفاً على أهل هذا البيت المقدس؛ فخفُوا إليها سِرَاعاً، وتنازعوا في كفالتها، كل يريد أن يكون المدبر لشؤونها، والقائم على تربيتها؛ لأنها بنتُ إمامهم، وسليلة صاحب قربانهم.

وكان أشدهم حَدباً عليها، وأكثرهم رغبة في كفالتها زكريا، فقال لهم: أنا زوج

خالتها؛ فأعطوني إياها، وخصُّوني بالعناية بأمرها؛ فأنا أقربكم رحماً إليها، وأوثقكم صلة بها.

اشتد النزاع، وكثرَ الجدال، وطالَ الحوار، واسترسل كلٌ يدلي بحجته، ويبين فضله على غيره، ويطلب في إلحاح وعنف أن يستأثر بها، ويختص بكفالتها، ولم تجتمع كلمتهم على تسليمها لأحد؛ لأن كلا منهم كان يرجو الزُّلفى[١] إلى ربه.

وقد كان زكريا يرى نفسه أحق بهذا الفضل، وأولى من غيره بذلك الشأن، وبعد ما لمسوا استحالة اتفاقهم، وأحسوا افتراق شملهم، أعلنوا أنهم لن يخضعوا لرأيه، أو يؤثروه على أنفسهم، حتى يقترعوا عليها؛ فرضي زكريا بذلك حَكَماً بينه وبينهم، وانطلقوا جميعاً إلى نهر، فألقوْا فيه أقلامهم[٢]، فارتفع قلم زكريا فوق الماء، ورسبت أقلامهم؛ فانصاعوا لرأيه، وخضعوا لإرادته، وسلموها إليه، فتكفلها، وصار وليَّها، والقائم بتربيتها.

أراد زكريا أن يمهد سبيل الراحة لتلك التي أَلْقَى الله إليه مقاليد أمورها، ودفعه حب الاستئثار إلى أن ينأى بها عن الناس، وَيُبْعدها عن ضوضائهم، ويخص نفسه بخدمتها، ويحرِّم على غيره الدخول إليها؛ فبنى لها غرفة عالية في بيت المقدس، لا سبيل إليها إلا بالصعود في سُلّم.

وكان دائماً يتفقد شؤونها، ويتردد عليها في محرابها؛ ليطمئن على حالها، ويمهد لها سبيل عيشها.

ولا ريب أنه كان قرير النفس بكفالتها، وأنه لذلك عُنِيَ براحتها، وتوفير أسباب السعادة لها؛ واستمر على ذلك حتى رأى يوماً شيئاً عجب له، بل شُدِه وتحيَّرَ في أمره.

ذلك أنه لما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رِزْقاً، وَعَهْدُه بها ألا يدخل إليها أحد، أو يطرُق باب حجرتها طارق، ولم يحمل هو إليها مثل هذا الرزق، أو يَعْلم شخصاً قد أدخله عليها، وكثر تفكيره في الأمر، ومال إلى الوقوف على سره.

لم يستطع تعليلَ ذلك؛ فحاول الوقوف على ذلك السر العجيب، وطرق لذلك أبواباً

---

(١) الزلفى: القربى والمنزلة.

(٢) أقلام جمع قلم: وهو السهم الذي يُجال بين القوم في القرعة.

عدَّة فلم يوفق، وأشكل عليه الأمر والتوَى، فدخل إليها، وقال: يا مريم، أنىٰ لك هذا الذي لا يشبه أرزاق الدنيا، وهو آت في غير حينه، والأبواب مغلقة عليك، ولا سبيل للدخول إليك؟

فقالت: إنه من عند الله؛ إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

هناك عظُم تقديره لها، واشتد حدبُه عليها، وعلم أن الله قد اختَّصها بمنزلة دونها منازلُ الناس، وأنه قد اصطفاها على نساء العالمين.

وقد أثارت في نفسه تلك المكرمات التي أجراها الله على يدها، كامنَ الرغبة في أن يهب الله له ولداً من صلبه.

وليس من شك في أنه الآن قد جاوز السن التي يُرْزق فيها الرجال بالأولاد، وأن زوجته قد يئست من ذلك، ولم يَعُدْ لها أمل فيه، ولكن رحمه الله واسعة، وقدرته لا يعجزها شيء في السموات ولا في الأرض، وهو يعلم ذلك ويعرفه، لذلك اتجه إلى فاطِر السمواتِ والأرض، وناداه نداءً خفيًّا، وتمنى أن يُسْبغ عليه هذه النعمة، وأن يحقّق له تلك الرغبة، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ[1] مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾[2].

فاستجاب الله دعاءه، وآتاه سؤله، وقال ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾[3].

نمت مريم وترعرعت، وشبَّت واشتدّ ساعدها، وعمرَ قلبها بالتقوى والصلاح، ومكثت بالبيت تعبد الله الذي يرسل إليها رزقها رغداً، وأخلصت في القيام بسدانة البيت وخدمته حتى صارت مَضْرب الأمثال.

---

(١) الموالي: أي الذين يلوني في النسب كبني العم، وكانوا شراراً.
(٢) سورة: مريم، الآيات: ٤ ـ ٦.
(٣) سورة: مريم، الآية: ٧.